# الكرم

## عوامله وأبعاده الاجتماعية في حياة العرب

**د. عبدالرزاق بن حمود الزهراني**
قسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقديم الطعام للآخرين ضرورة تفرضها طبيعة الحياة، فالطعام يعد من المقومات الأساسية لاستمرار الحياة، فهو بعد الهواء والماء مما يطلق عليه "أرخص موجود وأعز مفقود"، فالهواء يستنشقه الناس دون مقابل، ولا يستطيع كائن حي أن يعيش بدونه لفترة قصيرة من الزمن، ومثل ذلك يقال عن الماء، وإن كانت الكائنات الحية تستطيع أن تعيش بدونه لفترة أطول من فترة الحاجة إلى الهواء، والطعام يعد ثالث أهم ضروريات الحياة، فلا تستطيع الكائنات أن تستغني عنه لفترة طويلة من الزمن. ولهذا كان تقديم الطعام للآخرين مثل: المسافر والمعدم ضرورة فرضتها طبيعة الحياة في القدم، حيث كان الناس يعتمد بعضهم على بعض بصورة مباشرة، وكل إنسان معرض لأن يكون في حاجة إلى أن يقدم له الآخرون الطعام.

ولا أعتقد أن هناك أمة يمكن أن تنافس العرب في هذا الجانب، وقد حفلت الثقافة العربية بعوامل كثيرة تدعم قيمة الكرم وترسخها، وتعد تعاليم الإسلام وقيمه من أبرز تلك العوامل وأهمها، فقد دعا الإسلام إلى إكرام الضيف، وجعله علامة من علامات الإيمان، والشعر من العوامل المهمة التي رسخت قيمة الكرم، ودعت إلى ممارستها في الحياة، فقد كثرت مدائح الشعراء لأهل الكرم

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٣هـ، السنة الثامنة والعشرون

والضيافة، وحفظ لنا الشعر العربي - الذي يعرف بـ «ديوان العرب» - الكثير من القصائد والمقطوعات الشعرية البديعة في هذا الجانب. ويمكن النظر إلى الشعر بأنه أداة من أدوات الضبط الاجتماعي، وما يعكسه من ترغيب يتمثل في المدح لمن يلتزم بقيم المجتمع، ويطبقها ويحرص عليها، وما يمارسه من ترهيب يتمثل في الذم والهجاء لمن يخالف قيم المجتمع وتقاليده ويخرج عنها. ومن المعروف أن المدح يؤدي إلى رفع المكانة الاجتماعية، وأن الذم يؤدي إلى انخفاضها.

وفي هذه الدراسة التي تأتي في إطار علم الاجتماع الأدبي، وتستفيد من بعض فروع علم الاجتماع الأخرى، وخاصة علم الاجتماع الاقتصادي، نعرض لقيمة الكرم عند العرب، في محاولة لإبرازها في إطارها التاريخي المتوارث، مع بيان جوانبها الاجتماعية التي تعكسها أشعارهم، وقصصهم وأمثالهم. فعلم الاجتماع الأدبي هو العلم الذي يحاول أن يستجلي حياة المجتمع، وتفاعلاته، وقيمه، وأولوياته من خلال الإنتاج الأدبي لذلك المجتمع، وفي هذا السياق يقول سعيد ضناوي عن دراسته التي بعنوان (مدخل إلى علم اجتماع الأدب)؛ "تنطلق هذه الدراسة من ارتباط الأدب بالمجتمع ارتباطًا عضويًا وثيقًا. فهو قيمة اجتماعية تتداخل مع ظواهر أخرى بحيث لا يمكن فهم الأدب في حقبة معينة من الزمن، دون فهم الإطار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لتلك الحقبة"[(١)].

وللكرم عند العرب قيمة قديمة، لها مكانة عليا في حياتهم، وتحتل الصدارة في سلم القيم الاجتماعية، حيث تشير رموز الثقافة الاجتماعية، ومؤشرات المكانة، والأشعار والقصص إلى أن الكرم قيمة اجتماعية بارزة في حياة العرب.

---

(١) سعيد ضناوي، (مدخل إلى علم اجتماع الأدب)، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ص:٣٧، انظر كذلك: روبير اسكاربيت (سوسيولوجيا الأدب) ترجمة وتمهيد: آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

والتاريخ والأدب العربي بأشعاره وقصصه المتوارثة وأمثاله وحكمه هما مصدرنا في تتبع قيمة الكرم عند العرب، ومعرفة أبعادها وجوانبها الاجتماعية، وتعد تلك النصوص الأدبية انعكاسًا للحياة الاجتماعية، وكما يقول سعدي ضناوي: "من الصعب جدًا تصور خط أدبي يجري فيه الإنتاج وفق تصميم مفتعل ومسبق، قبل أن تمهد التيارات الحياتية مجراه. إن الفن... عمل موجه مرتبط بالجهات التي يتوجه إليها. وفن الأدب بالذات، بوصفه فنًا مرتبطًا بالكلمة، وهي من إنتاج الجماعة، يكون حتمًا رسالة موجهة إلى جمهور، معتمدة مفاهيمه وعواطفه وخبراته وذوقه وآماله، وعليها أن تحوز رضاه"(٢).

والأدب عامة، والشعر خاصة مرآة تعكس على صفحاتها بعض ثقافة المجتمع وقيمه وعاداته، وفي هذا يقول زكي إسماعيل: "إن العمل الأدبي يصبح وثيقة تعبر عن إحساسات وشعور بعض الأفراد المتميزين ذوي القدرات الخاصة بطريقة فريدة متميزة تعبر عن فهم عالمهم الاجتماعي واستيعاب ثقافتهم التي يعايشونها بطريقتهم الخاصة بحيث يجمع هذا الاستيعاب بين الاستيعاب الذاتي والمعرفة الواقعية، بين الخيال الأدبي والحضور الواقعي، لهذا يمكن القول بأن العمل الأدبي متمثلاً في (النص) لا يمكن فهمه متكاملاً إلا من خلال السياق الثقافي"(٣). إن النصوص الشعرية، والقصص المتوارثة، والأمثال والحكم التي تتعلق بالكرم في حياة العرب تعبر عن أبعاد تلك القيمة، وعن العوامل التي يستخدمها المجتمع في الدفاع عن قيمه وأخلاقه وعاداته.

(٢) سعيد ضناوي، مصدر سابق، ص: ٩ .

(٣) زكي محمد إسماعيل، (الأنثروبولوجيا والأدب العربي) دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، ١٤١٢هـ ص:١٣.

## خلفية تاريخية:

لعل أقدم الحالات التاريخية التي وصلت إلينا حول الضيافة هي ما ورد في القرآن الكريم من قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[٤]. وقد فسر ابن كثير هذه الآيات بقوله: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» أي الذي أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله عز وجل «فراغ إلى أهله» أي انسل خفية في سرعة « فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» أي من خيار ماله وفي الآية الأخرى "فما لبث أن جاء بعجل حنيذ" أي مشوي على الحجارة. «فقربه إليهم» أي أدناه منهم «قال ألا تأكلون» تلطفٌ في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة والتي منها[٥]:

١ - أنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون وبسرعة.

٢ - لم يسألهم رغبتهم في أن يأتيهم بطعام، بل جاء به بسرعة وخفاء، وهذا يصب فيما هو مشهور من قول عامة الناس (من شاور ضيفه أطواه) أي من سأل ضيفه عما إذا كان يرغب في الطعام، أو ما هو الطعام الذي يرغب فيه جعل ضيفه طاويًا وجائعًا لأن الضيف يستحي في العادة أن يفصح عن رغباته وجوعه، إلا عند شخص ترتفع بينهما الكلفة.

(٤) الآيات (٢٤ - ٢٧) من سورة الذاريات.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير، في: (موسوعة طالب العلم الإلكترونية)، عبداللطيف للمعلومات، الإصدار الثاني، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٣ – أتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي.

٤ – قربه إليهم ولم يضعه ويقول اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم.

٥ – لم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

وطرق إكرام الضيف واستقباله ومعاملته، تنتقل عن طريق التنشئة الاجتماعية، ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل، وينقلون تلك الطرق من بعضهم عندما يرون فيها جديدًا، فقد قيل لحكيم كريم: كيف تعلمت إكرام الضيف؟ قال: كانت الأسفار تضطرني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته اتبعته، وما استقبحته تجنبته.

أما الحالة التاريخية الثانية فهي ما ورد في القرآن كذلك حول قصة موسى والخضر عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا** ﴾[٦]. ومما جاء في تفسير القرطبي حول هذه الآية "أن الخضر وموسى عليهما السلام طافا في تلك القرية و "استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض" أي مائل يوشك أن يسقط، فأقامه الخضر بيده، فقال له موسى متعجبًا: قوم أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا "لو شئت لاتخذت عليه أجرا، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا". في هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه، والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة؛ بدليل قوله: "فأبوا أن يضيفوهما" فاستحق أهل القرية لذلك أن يذموا، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام، قال قتادة في هذه الآية، شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل

(٦) الآية (٧٧) من سورة الكهف.

حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء"(٧).

ومن النصين السابقين نرى أن الضيافة وتقديم الطعام للقادم والنازل ظاهرة قديمة، ومن المرجح أنها سابقة لعهد إبراهيم عليه السلام، ومن آداب الضيافة أن يأتي بأفضل ما يجد كما فعل إبراهيم بتقديم العجل السمين المشوي، وأن يحضره ويضعه بين يدي الضيوف ويقربه لهم، وأن يتلطف معهم ويعاملهم بحسن وبشاشة، هذه الآداب التي برزت في تصرف إبراهيم عليه السلام مع الملائكة انتقلت عبر الثقافة الاجتماعية من جيل إلى جيل، فلا زال معظم تلك الآداب متبعًا في الجزيرة العربية إلى اليوم.

## بيئة الجزيرة العربية وانعكاساتها على كرم الضيافة:

الحياة المعيشية في أي وطن تتأثر بأربعة عوامل رئيسية كما تقول مدرسة الاقتصاد الوطني، هي(٨):

١ - ظروف البيئة من حيث الحرارة، والبرودة، وتساقط الثلوج، والفيضانات، وفترات الجفاف وما شابه ذلك من الظروف البيئية.

٢ - طبيعة الأرض من حيث التضاريس ووجود الأنهار أو الصحاري أو الجبال أو السهول، وتوافر المياه وعدمها وخصوبة التربة.

٣ - طرق معيشة السكان، فاقتصاد أي وطن يتأثر بطرق معيشة السكان، وعادتهم الاستهلاكية، وطرقهم في الإنتاج والادخار والاستثمار.

٤ - التطور التاريخي، فالاقتصاد في أي وطن لا يبقى جامدًا، وإنما يتغير من حقبة إلى أخرى.

---

(٧) المصدر السابق.

(٨) انظر: السيد محمد بدوي، (علم الاجتماع الاقتصادي)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ١٩٨٦م، ص:٢٩.

وإذا نظرنا إلى أحوال الجزيرة العربية في إطار هذه المدرسة نجد أن ظروف البيئة كانت قاسية، فمعظم الجزيرة العربية صحراء، عالية الحرارة صيفًا عالية البرودة شتاءً، ويقل فيها سقوط الأمطار، وتطول فترات الجفاف، والصحراء غير صالحة للزراعة لضعف خصوبة التربة من جهة، وقلة المياه من جهة أخرى، أما طريقة معيشة السكان فقد كانت لقرون طويلة تعتمد في معظمها على الرعي والتنقل من مكان إلى آخر بحثًا عن مواطن الكلأ والماء، فيما عدا المواطن الريفية على قمم جبال السروات وسهول تهامة وبعض الواحات والمراكز الحضرية الصغيرة مثل مكة وجدة والمدينة والرياض والأحساء والخرج.

وفي بيئة قاسية مثل هذه البيئة لا بد أن يعتمد الناس على بعضهم في تقديم الطعام أثناء التنقل والسفر، وفي حالات الجدب والجفاف، وفي تقديم المأوى والراحة وتأمين حياة المسافر وماله، لأن كرم الضيافة لا يرتبط فقط بتقديم الطعام والمأوى للضيف وإنما بالإضافة إلى ذلك لا بد من حماية الضيف، وإشعاره بالأمن، وصد ما يمكن أن يتعرض له من اعتداء ما دام في حدود ممتلكات القبيلة التي منها المضيف.

إن الحاجة إلى مساعدة المسافر وإكرامه في البيئة الصحراوية لابد أن تكون أعلى منها في الأماكن الزراعية المستقرة مثل تلك التي على ضفاف النيل ودجلة والفرات والعاصي. ففي تلك المناطق هناك في الغالب اكتفاء ذاتي للأسر، وفي حالات كثيرة يكون هناك فائض يباع أو يقدم للآخرين في أوقات الجفاف والكوارث، وقد يكون الواهب اليوم موهوبًا غدًا وهكذا. وفي مناطق الاستقرار الزراعي يقل التنقل والترحل، ومن ثم تقل الحاجة إلى الاستطعام وطلب الضيافة، ثم إن وسائل المواصلات النهرية أسرع من وسائل المواصلات البرية، وربما اعتمد المسافر في النهر على

ما يصيده من أسماك، وحاجته في أن يمر على الغير في طريق سفره قليلة. أما المسافر في الصحراء فإنه يتعرض للبرد والحر ويحتاج إلى إراحة دابته، والصيد البري قليل، والنجاح في الحصول عليه أصعب من صيد البحر، ولهذا كله كان المسافر في الصحراء بحاجة إلى عون الآخرين ومساعدتهم في الإيواء وتقديم الطعام.

وبما أن الغالبية العظمى من سكان الجزيرة العربية كانوا بدوًا رحلاً يعتمدون في حياتهم على المواشي وخاصة الإبل والأغنام، يأكلون لحومها، وينسجون أصوافها وأوبارها، ويشربون حليبها ولبنها، ويدبغون جلودها، فإنه لم يكن لديهم خيار عندما يأتيهم ضيف أو وافد من أن ينحروا له جزورًا أو يذبحوا له من أغنامهم. فلم يكن هناك أسواق ولم يكن هناك طعام منوع، ولم يكن هناك بدائل أخرى. لهذا كان العربي يعمد إلى ذبح الماشية ليطعم ضيفه ويطعم أهله.

ويبدو أن تقديم الذبيحة للضيف التي فرضتها ظروف البيئة، وطبيعة معيشة السكان في العصور القديمة في الجزيرة العربية استمرت لفترات طويلة حتى تحولت إلى ظاهرة اجتماعية، وإلى مكون أساسي من مكونات الثقافة العربية. والظاهرة الاجتماعية لها كثير من الخصائص والسمات منها:

١ - أنها سابقة على الفرد، وآتية إليه من الخارج.

٢ - الشمول والانتشار، بحيث تطبق من قبل غالبية المجتمع.

٣ - الاستمرارية عبر الزمن.

٤ - لها صفة الإلزام للأفراد حتى لو لم يكونوا مقتنعين بها. ففي موضوع ظاهرة الكرم، قد لا يكون الفرد مقتنعًا بذبح الذبيحة للضيف، خصوصًا إذا وُجدت البدائل، ولكنه يفعل

ذلك لشعوره بضغط الثقافة الاجتماعية، فمن لا يذبح لضيفه تنقص مكانته، وربما تأثرت سمعته سلبًا(٩).

وربما زاد من تأكيد هذه القيمة الاجتماعية وترسيخها في حياة العرب افتداء الله سبحانه وتعالى لإسماعيل عليه السلام بكبش أقرن قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(١٠) قال ابن كثير في تفسيرها: "الذبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطحن اسم المطحون. والذبح بالفتح المصدر. "عظيم" أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة. وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح، أو لأنه متقبل. قال النحاس: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف، أو المتقبل... وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثبير، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه، وهذا قول علي رضي الله عنه. فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه. وقال: يا بني اليوم وهبت لي. وقال أبو إسحاق الزجاج: قد قيل أنه فدي بوعل، والوعل التيس الجبلي. وأهل التفسير على أنه فدي بكبش. وفي هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهذا مذهب مالك وأصحابه. قالوا: أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحل المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر. وحجتهم قوله سبحانه وتعالى: "وفديناه بذبح عظيم" أي ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة"(١١).

ولقد انتقل هذا التفضيل في الأضحية عبر الزمن إلى الضيافة، فأفضل الضيافة الذكور من الضأن ثم يليها بالترتيب إناث الضأن ثم ذكور الماعز، ثم إناثها، ثم تقديم لحم الإبل ثم أخيرًا البقر. وهذا

(٩) للمزيد عن خصائص الظاهرة الاجتماعية انظر: إميل دوركايم، (قواعد المنهج في علم الاجتماع)، ترجمة: محمود قاسم والسيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

(١٠) الآية (١٠٧) من سورة الصافات.

(١١) تفسير ابن كثير، في: (موسوعة طالب العلم الإلكترونية) مصدر سابق.

الترتيب ليس موحدًا ومتفقًا عليه بين الناس في الجزيرة العربية، فربما فُضل نحر الإبل على ذبح ذكور الضأن في بعض المناطق، وربما فضل البعض لحم البقر على لحم الإبل. وربما يتغير هذا الترتيب في المنطقة الواحدة من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، وذلك حسب الأوضاع الاقتصادية، وحسب المؤثرات الاجتماعية القادمة من خارج تلك المنطقة.

**دوافع الكرم:**

للكرم دوافع كثيرة قد تختلف من شخص إلى شخص، وتختلف في المجتمع الواحد من فترة إلى أخرى، حسب المتغيرات الاجتماعية المختلفة، ولعل أهم تلك الدوافع تتمثل في الآتي:

١ - الفوز برضا الله سبحانه وتعالى، ونيل الأجر والثواب، واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ.

٢ - الرغبة في السمعة والثناء، وكسب المجد والحمد من الناس، والخوف من الهجاء والذم.

٣ - الرغبة في مأمول، فبعض الناس يعمد إلى الكرم للوصول إلى غاية لا يتسنى الوصول إليها إلا عن طريق الشخص الذي تم إكرامه، وهنا قد يتحول الكرم إلى نوع من الرشوة.

٤ - دفع ضرر محتمل، فقد يلجأ الشخص إلى الكرم لدفع ضرر متوقع عليه، أو على ماله، أو على أهله. يروي أحد كبار السن للباحث أن مجموعة قدموا على بدوي يقيم في بيت شعر في منطقة منعزلة، فلما رآهم توقع أنهم ينوون سلب ماله، وربما قتلوه، فما كان منه إلا أن رحب بهم، واستقبلهم استقبال الضيوف، وذبح لهم وأكرمهم، وبعد سنين عديدة اعترف أحدهم أنهم تركوه لكرمه، وأن نيتهم نحوه كانت سيئة.

٥ - ملء وقت الفراغ، فالبعض قد يلجأ إلى الكرم ليأنس بوجود الآخرين حوله، ويقضي معهم وقتًا ممتعًا ومفيدًا.

٦ - التعبير عن الحب والتقدير والاحترام للشخص المحتفى به.

٧ - إنقاذ الأرواح، ومساعدة المحتاج والمسافر، وإرضاء الضمير.

٨ - الرغبة في جمع الأصدقاء، وتهيئة الفرصة للقاء بعضهم بعضًا.

## احتفاء الأدب العربي بالضيافة والكرم:

لا أعتقد أن هناك أدبًا من الآداب العالمية احتفى بموضوع الكرم والضيافة مثل الأدب العربي. والأدب هو وعاء الثقافة ومؤشر على قيم المجتمع ومثله العليا، وهو مرآة تعكس حياة الناس وتفاعلاتهم. وإكرام الضيف كما رأينا عادة أصيلة عند العرب ورثوها جيلاً بعد جيل، وهي مما يستحق الحمد والثناء والمدح، أما البخل والتقتير والإمساك فمما يستحق الذم والهجاء، لأن العرب يعدونه من مؤشرات اللؤم، ومن دواعي العار والامتهان.

ولقد استخدم العرب ألفاظًا وتعبيرات مختلفة كلها تدور حول مفهوم الكرم، وكثرة الألفاظ والتعبيرات عن الشيء الواحد تدل على انتشاره وتنوعه في حياة المجتمع، فالهولنديون مثلاً لديهم مئات الأسماء للزهور والورود لكثرة زراعتها عندهم وتنوعها، واختلاف ألوانها وأشكالها، ومثل ذلك يقال عن أسماء السيف وأسماء التمر عند العرب. ومن أهم الألفاظ التي تدل على الجود والكرم، ومن أكثرها انتشارًا عند العرب لفظ الجود، والندى، والضيافة، والقِرى. وسوف نتناول فيما يأتي ما جاء حول كل لفظ على حدة مع تحديد معناه لغويًا.

## الكرم:

جاء في لسان العرب عن الكرم ما يأتي: "الكريم من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وهو الكريم المطلق. والكريم: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل. والكريم اسم جامع لكل ما يحمد، فالله عز وجل كريم حميد الفعال

ورب العرش الكريم العظيم. ابن سيده: الكرم نقيض اللؤم، يكون في الرجل بنفسه، وإن لم يكن له آباء"[١٢].

فالكرم في معناه اللغوي كلمة جامعة لكل ما يُحمد من الأفعال والصفات والقيم، وبما أن استقبال الضيف، وبذل الطعام له عن رضا وطيب نفس من أفضل القيم، ومن أجل الصفات فإن الذهن ينصرف عند سماع لفظة كرم وكريم إلى هذا المعنى، وربما وبمرور الأيام أصبحت كلمة كريم تعني هذا المعنى فقط عند الكثير من الناس، وخاصة العامة منهم. فالكريم عندهم هو الرجل المضياف.

أما الشعر العربي القديم فإن لفظة كريم تعني التحلي بالصفات الحسنة وفي مقدمتها البذل والعطاء وإطعام الضيف. يقول طرفة بن العبد وهو من شعراء العصر الجاهلي ومن أصحاب المعلقات[١٣]:

وتفـــرعنا من ابني وائلٍ    هامة العز وخرطوم الكرم

فهو يفخر بأن قومه في أعلى مكان بين بني وائل عزًا وكرمًا وأصالة معدن.

أما الفرزدق فقال يمدح زين العابدين بن علي عندما رآه يطوف حول الكعبة:

إذا رأته قريش قال قائلها:    إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

أي أنه بلغ منزلة عليا من الصفات الحميدة بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إليها، فقد بلغ المنتهى والغاية في هذا الشأن. ولا شك أن من ضمن تلك الصفات الحميدة كثرة العطاء والبذل، وخاصة للضيف والوافد.

(١٢) (لسان العرب) لابن منظور، ج:١٢، ص:٥١٠ وما بعدها.

(١٣) المجمع الثقافي، (الموسوعة الشعرية الإلكترونية) الإصدار الأول، أبو ظبي. وقد تم الاعتماد عليها في الحصول على جميع النصوص الشعرية المستخدمة في هذه الدراسة.

ومن أبرع ما قيل في الفخر بالكرم ما قاله الأمير الفارس أبو فراس الحمداني:

ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي بالمال أبغي وفوره إذا لم أفر عرضي فلا وفر الوفر

فهو يملك جماع الصفات الحميدة، وناصية القيم الرفيعة، فالغنى لا يطغيه، ويجعله يتكبر على خلق الله، والفقر كذلك لا يفت في عزيمته، ولا يثنيه عن الكرم والبذل والعطاء، وما ذلك إلا لقناعة لديه بأن صيانة العرض والمكانة والمحافظة عليهما أهم وأولى من توفير المال والمحافظة عليه. فهو كريم بطبعه سواء في حالة الغنى أو في حالة الفقر، لأن القاعدة عنده هي المحافظة على كرامته وعرضه في جميع الظروف والأحوال، والابتعاد عن كل ما يجلب المذمة والمنقصة مثل البخل والشح، ولا شك أن الكرم مما يوجب الحمد والثناء، وأبو فراس جعل الكرم من العوامل التي تحافظ على عرض الإنسان وشرفه.

وجزاء الكرم الحمد والثناء، وارتفاع المنزلة، وزيادة التقدير والاحترام في المجتمع، فهو في المجتمع العربي من أبرز عوامل ارتفاع المكانة الاجتماعية، وفي هذا يقول الشريف الرضي:

والحمد يبقي ذكر كل فتى ويبين قدر مواقع الكرم
والشكر مهر للصنيعة إن طُلبت مهور عقائل النعم

وإذا كانت العرب تمدح الكريم فإنها تذم البخيل، وتحتقره وتزدريه، وبهذا يكون أسلوب الترغيب والترهيب هو الأداة التي يستخدمها المجتمع لترسيخ ظاهرة الكرم، فالشخص يكون كريمًا طمعًا ورغبة في المدح، وحسن السمعة والصيت، واحترام الآخرين له،

وخوفًا من الذم والاحتقار والسمعة السيئة، وفي هذا يقول أبو هلال العسكري يذم بخيلاً:

لك برمـــة نزهتـــهـــا   مـن أن تـدنـس بـالـدسـم
بيـــضـــاء يشـــرق نورها   كـالبـدر فـي غـسق الظلم
لـو كـان عـرضك مـثلهـا   كنت المـمـــدح فـي الأمم
أو كـان فـعلك مـثل قـو   لـك كـنـت تـاريـخ الـكـرم

فهو يسبه بعدم استعمال قدره في الطبخ للضيوف، فهي لا تعرف الدسم، ولذلك فلونها أبيض مشرق كالبدر في وقت الظلام، ولو كان عرضه في نظافته وسلامته مثل نظافة ذلك القدر وصفائه لبز الناس وفاقهم، ولو أن أفعاله تجاري أقواله لكان من أكرم الناس، ولكن كرمه لا يتعدى اللسان، وكرم اللسان صفة هجا بها المتنبي كافورًا وقومه حين قال:

جود الرجال من الأيدي وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وظاهرة الجود اللفظي، وعذوبة اللسان، وحلاوة الكلمة والتي لا يعقبها أي فعل ظاهرة اجتماعية قديمة، وستظل ما كان هناك أناس يجيدون المراوغة والخداع والكذب.

والكرم عند العرب لا يعني فقط تقديم الطعام للضيف، وإنما - كما سبق - يعني جميع الصفات والقيم المستحسنة والرفيعة، ويأتي في مقدمتها البذل والعطاء، وفي هذا المعنى يقول دعبل الخزاعي:

كريم إذا ما جئت للخير طالبًا   حباك بما تحوي عليه أنامله
ولو لم تكن في كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

فممدوحه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، حتى أنه لكثرة عطائه وبذله لو جاءه من يطلب العطاء وليس في يده إلا روحه لقدمها له، وهذه مبالغة الهدف منها إظهار كرم الممدوح وكثرة عطائه.

هذا وقد جمع الأخطل ثلاث كلمات كلها تدل على الكرم، وهي كريم وجواد وغير عاتم للقرى فهو يقول:

كريم مناخ الضيف لا عاتم القرى ... ولا عند أطراف القنا بهيوب

وقال :

جواد إذا ما أمحل الناس ممرع ... كريم لجوعات الشتاء قتولها

فالضيف عندما ينيخ ببابه يجد الكرم، والقرى، وعندما يحين موعد النزال تجده غير متهيب للمواقف ولا خائف من القتال. وفي البيت الثاني يصف ممدوحه بأنه جواد ومعطاء في أوقات المحل والجفاف، وهي الأوقات التي يصعب فيها العطاء والبذل، وهو كذلك كريم وخاصة في أوقات الشتاء حيث تقل الأمطار، وتقل الخيرات، وتكثر الحاجة إلى الطعام والكساء والمأوى. ومن الأبيات السابقة نرى كيف مارس الشعر عملية الضبط الاجتماعي بالثناء على الكرماء، وإبرازهم ورفع مكانتهم، وذم البخلاء وهجائهم وخفض مكانتهم.

**مارس الشعر عملية الضبط الاجتماعي بالثناء على الكرماء وذم البخلاء**

**القِرى:**

ومن مرادفات الكرم عند العرب تقديم القرى للضيف، وهو الطعام. فالعرب يمدحون من يقري ضيوفه ويكرمهم، وفي هذا المعنى تقول الخنساء:

فمن يضمن المعروف في صلب ماله ... ضمانك أو يقري الضيوف كما تقري؟

ويقول أبو العتاهية:

وليس الغنى إلا غنًى زيَّن الفتى عـشـيــة يُقــري أو غـداة ينيل

فـالغنى الحـقـيـقـي عنده هو زينة لصـاحبـه، وتلك الزينة لا تتم إلا حين يقري الضيوف، أو يُعطي المحتاج. وقرى الضيف عملية تبادلية، فمن أكرمته اليوم سوف يكرمك غدًا، وصور رد الكرم كثيرة منها المعونة، والشفاعة، والمصاهرة، والسلفة، وغير ذلك من وجوه المعروف. وقد قدم رهين المحبسين أبو العلاء المعري مجموعة من النصائح المفيدة في التعامل مع الناس، ومنها أن فائدة من يقدم الطعام أكثر من فائدة الضيف الذي اضطرته الظروف لذلك، فهذا الطعام يعد ذخرًا وكنزًا لمن يقدمه. يقول:

ترجَّ بلطف القول ردَّ مخالفٍ إليك فكم طِرفٍ يسكَّنُ بالنقر
وإن لم تر الصقر الحمامةُ دهرها فمن شيم الورق الحذار من الصقر
وإن جاء ضيف طارق عن ضرورة فذخر لقاريه الطعام الذي يُقري
وإن اقتناع النفس من أحسن الغنى كما أن سوء الحرص من أقبح الفقر

والقرى يشمل محادثة الضيف وإيناسه والبشاشة في وجهه، يقول عروة بن الورد، الملقب بعروة الصعاليك، والذي عاش في العصر الجاهلي، وكان يجمع الفقراء في مكان واحد، ويغير على أموال الأغنياء ويأخذ منها ويطعم الفقراء:

سلي الطارقَ المعترَّ يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي؟ إنه أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري

ولم يكتف باستقبال الضيف بوجه مشرق باعتبار ذلك أول القرى، وله دلالاته الرمزية التي تشير إلى عدم التكلف، والرغبة والفرح بوجود الضيف، وأنه غير ثقيل على مضيفه، وإنما أضاف إلى ذلك

خاصية أخرى وهي محادثة الضيف، ولا زالت هذه العادة من العادات المرغوبة والمحبوبة بين الناس، فالمثل الدارج يقول (قابلني ولا تعشيني) إي قدم بشاشتك وحادثني وأظهر سرورك بوجودي معك، فإن ذلك عندي أهم من الطعام الذي تقدمه لي. وكم يذم الناس أولئك الذين لا يجيدون محادثة الضيف، ولا إيناس وحشته، ويصفون ضيافته بأنها تشبه العزاء الذي يكثر فيه الصمت نتيجة للحزن والأسى، وربما فسروا صمت صاحب المكان بأنه حزن على ما سوف يقدم من طعام. يقول عروة بن الورد عن محادثة الضيف:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته    ولم يلهني عنه غزال مقنعُ
أحدِّثُه.. إن الحديث من القرى    وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

فالحديث عنده من القرى، والبشاشة هي أول ذلك القرى؛ لأنها أول ما يصادف الضيف عند قدومه، وهي إشارة لما سيأتي بعدها، فإذا عُدمت بشاشة الاستقبال فربما يظن الضيف أنه غير مرغوب فيه، وقد يدفعه ذلك إلى الرحيل والبحث عن مكان آخر.

وإذا كان الشعراء يمدحون الأحياء طلبًا لعطائهم وبذلهم، ويبالغون في ذلك المدح إلى الدرجة التي تجعل المتلقي يشكك أحيانًا في صحة ما يقولون، فإن مدح الأموات وذكر صفاتهم غالبًا ما يكون صادقًا وممثلاً للواقع، ومن هذا ما قاله عبيدالله بن قيس يمدح رجلاً كريمًا قدم إلى ربه:

وكان أبو أوفى إذا الضيف نابه    تُشب له نار وتُنضى له قدر
فيمسي ويضحي الضيف شبعان والقرى    حميدٌ ويبقى بعدها الحمدُ والذكر

ومن تعود على إكرام الضيوف والجلوس معهم فإنه يفرح لمقدمهم، ويحزن إذا مرت أيام ولم يأته أحد، وربما كان دعبل الخزاعي واحدًا من هؤلاء، فهو يجد نفسه في الكرم، ويجد متعته في مقابلة الضيوف والحديث إليهم، استمع إليه وهو يقول:

علـلاني بسـمـاع وطلا ... وبضيفٍ طارقٍ يبغي القرى
نغمات الضيف أحلى عندنا ... من ثغاء الشاء أو ذات الرُّغا
ننزل الضيف إذا ما حل في ... حبة القلب وألواذ الحشا
رب ضيفٍ تاجرٍ أخسرته ... بعته المطعم وابتعت الثنا

وتشير نظرية (التبادل الاجتماعي) أن الإنسان لا يقوم بأي عمل وهو في وعيه إلا وهو يرجو من ورائه منفعة ما(١٤)، وهنا نرى أن دعبلاً الخزاعي يفضل المعنوي على المادي، فهو يقدم المطعم مقابل الثناء والذكر وحسن السمعة. وتكرر المواقف والتعبير عنها دليل على أن دعبلاً الخزاعي من عشاق الكرم وممارسيه في حياتهم، وأنه رمز من رموزه الذين تقتدي بهم الأجيال، ويساعدون على نقل قيمه من جيل إلى آخر، فهو يقول في مكان آخر:

قالت سلامةُ دع هذي اللبون لنا ... لصبية مثل أفراخ القطا زُغُبا
قلت احبسيها ففيها متعة لهمُ ... إن لم يُنخ طارق يبغي القرى سَغِبا
لما احتبى الضيفُ واعتلت حلوبتها ... بكى العيال وغنت قدرنا طربا
هذي سبيلي وهذا فاعلمي خلقي ... فارضي به أو فكوني بعض من غضبا
ما لا يفوت وما قد فات مطلبه ... فلن يفوِّتني الرزقَ الذي كُتبا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبني ... والرزق أكثر لي منه له طلبا
هل أنت واجد شيء لو عنيت به ... كالأجر والحمد مرتادًا ومكتسبا؟!!

(١٤) انظر: D P Janson, Sociological Theory: Classical Founders and Contemporary Perspectives, John Wiley &Sons, New York, 1981:342-384.

فهو يفعل ذلك عن قناعة بأن الرزق من الله يسوقه لمن يشاء، والكرم والعطاء والبذل لا تفقر، والكرم ثوابه الأجر من الله والحمد من الناس، وهذان أكبر وأسمى من جميع ما يُقدم للضيف من مال وطعام. وتحدث دعبل في مكان ثالث عن كرمه فقال:

ويدلُّ ضيفي في الظلام على القرى … إشــراق ناري أو نبــاح كــلابي
حــتى إذا واجــهنَه ولقــينَه … حــيــينه ببــصــابص الأذناب
فتكاد من عرفان ما قد عُودت … من ذاك أن يفصحن بالترحاب

فهناك طريقان للضيف يهتدي بهما أو بأحدهما إلى داره: الأولى ناره المشتعلة، والثانية نباح الكلاب، وقد كانت العرب تفخر بإيقاد النار في الليل ليهتدي بها السُّراة والضيوف التائهون، فالنار لا يوقدها في الليل إلا كريم، أما البخيل فلا يفعل ذلك مخافة أن تدل النار أحدًا عليه، أما الكلاب فتتبح وكأنها تعلن عن مكان صاحبها، وتنادي الضيوف أن هلموا، وكلاب دعبل إذا رأت الضيف حيينه بتحريك أذنابها، وتكاد تعلن عن ترحيبها به لأنه عوَّدها على ذلك، وليس هناك عمل أفضل من استقطاب تائهٍ في الصحراء أضناه الجوع والعطش، ويتعرض لفتك الوحوش والضواري، إن إيقاد النار ونباح الكلاب بمثابة عمل اجتماعي راق لإنقاذ الأرواح، وإسعاف من يتعرض للخطر، ويعد هذا الجانب من أبرز الجوانب الاجتماعية للكرم.

وثقافة العرب تصف الكريم بأنه (جبان الكلب). فمن كثرة ما يرى ذلك الكلب من ضيوف وزوار يتوقف عن النباح، وتصبح رؤيتهم منظرًا مألوفًا لديه، لا يستدعي النباح والاستنفار. وفي هذا يقول الفرزدق:

وسارٍ قتلت الجوع عنه بضربةٍ … أتانا طروقًا، بالحسام المهند
على ساقِ مقحادٍ جعلنا عشاءه … شطائب من حمر السنام المسرهد
وطارق ليلٍ قد أتاني وساقه … إليَّ سنا ناري وكلبٍ معوَّد

ومُستَبَح أوقدت ناري لصوته    بلا قمرٍ يسري ولا ضوء فرقد
ونارٍ رفعناًها لمن يبتغي القرى    على مشرفٍ فوق الجراثيم موقد

فهو يفتخر بأنه عندما يأتي طارق ليل يقوم ويعقر بسيفه إحدى بكاره، ويقدم أفضل ما فيها - وهو السنام - إلى الضيف بعد أن يصنع منها شرائح وشطائب ليسهل على الضيف تناولها. ويفخر كذلك بأنه إذا سمع الكلاب تنبح عرف أن هناك ضيفًا تائهًا في الليل، فيوقد له النار ليهتدي بها، لعدم وجود قمر أو نجم يهتدي به، إنها خدمة عظيمة فرضتها الظروف وثقافة المجتمع يقدمها المقيمون من أفراد المجتمع للمسافرين والتهائين، يشعرونهم فيها بالأمن، وبأنهم ليسوا وحدهم في تلك الفيافي والقفار.

وليس بالضرورة أن يتكلف الإنسان ما لا يطيق ليقري ويكرم ضيفه، وإنما يعطيه مما تيسر له، فالناس يقدرون أحوال بعضهم بعضا. وكم شكر الضيف مضيفه من أجل زاد يسير هو أفضل ما يمكن تقديمه، وأنقذ به روحًا من الهلاك. وفي تقديم اليسير للضيف وعدم احتقاره يقول أبو العلاء المعري:

إذا الضيف جاءك فابسم له    وقرب إليه وشيك القرى
ولا تحقر المزدرى في العيون    فكم نفع الهيّنُ المزدَرَى

فهو هنا يقدم ثلاث نصائح لمن يأتيه ضيف وهي:

١ - أن يبسم في وجهه، ويظهر الفرح والسرور بمجيئه لأن ذلك أول القرى ومقدمته كما مر معنا.

٢ - أن يقدم له ما تيسر وبسرعة، لأنه قد يكون جائعًا، وقد يعاني من انتظار صنع طعام أفضل، وقد يطول الوقت في إعداده.

٣ - ألا يحتقر صاحب المنزل ما يقدمه لضيفه، فربما يكون فيه الخير الكثير، والفائدة الجليلة لضيفه.

أما منع القرى ولو كان قليلاً فإنه يلحق بصاحبه سُبة، ويجعله عرضة للهجاء والذم، ومن أطرف ما قيل في هذا الجانب ما قاله أبو هلال العسكري يهجو بخيلاً لم يقدم لهم إلا البقول، وأنه ألزمهم الصيام في الليل، وهو غير جائز إلا عند اللئام، يقول في ذلك:

قرانا بقولاً إذ أنخنا ببابه ... فأصبح فينا ظالمًا للبهائمِ
وقفنا عليه الركب نسأله القرى ... ونحن على أعناق أغبرَ قائم
فصام وصوم الليل ليس بجائز ... وإن جاز في فقه اللئام الأشائم
أجاز صيام الليل حين استفزه ... تعاور ضيف في دجى الليل عائم
فبتنا أديم الليلِ نطوي على الطَّوى ... كأنا على غبراء من ظهر واشم

وقال يهجو رجلاً يقال له ابن قاسم:

قلَّ خيرُ ابن قاسمِ ... فغناه كعُدمهِ
كان من خشية القرى ... يختبي عند أمهِ
جاز في اللؤم حدَّه ... كأبيه وعمهِ
كاد يعديك لؤمه ... لو تسميت باسمهِ

فأبو القاسم هذا غناه كفقره، فهو من خوف إطعام الضيوف يكاد يختبي ويحتمي بأمه، وهذا ليس غريبًا فالبخل وهو صورة من صور اللؤم متوارث في أسرته، ولكنه فاق أباه وعمه فيه. ويخشى أبو هلال العسكري على من يتسمى باسمه أن ينتقل إليه البخل واللؤم، إن في مثل هذه الصور التهكمية بالبخلاء رسالة اجتماعية لمن يحاول أن يقتدي بهم، ويسلك مسلكهم، حيث تنتظره صور مشابهة، وهجاء وذم، وهذا من جوانب الترهيب التي يستخدمها المجتمع لحماية قيمه وعاداته وتقاليده.

**الجود:**

من مـرادفـات الكرم عند العـرب كلمـة (الجـود) وتعنـي كثـرة البـذل والعطـاء، وهـذا من أعظم أدلة كـرم النفس وصـفـاء مـعـدنهـا، وطيب مـحتـدهـا، ويكثـر الشـعـراء من وصـف ممدوحيهم بالجـود لما ينالهم من عطائه وهباته، وفي هذا يقول المتنبي:

قـد شـغلَ الناسَ كـثـرةُ الأملِ     وأنت بالمكرمـاتِ في شُغُلِ
تمثلـوا حـاتمًا ولـو عـقلـوا     لكنت في الجـود غـاية المثلِ

وربط الجـود هنا بالنموذج المثالي عند العـرب وهو حـاتم الطائي يعني أن أبا الطيب يعني المفهوم الذي يدل على الكرم. ومن الذين تحدثوا عن الجود كصفة مغايرة ومعاكسة للبخل أبو العتاهية حيث يقول:

الجـود مما يثـبت المحـبـة     والبـخل مما يثـبت المسـبـة

ولعل من الوظائف الاجتماعية للكرم أنه طريق للتحاب والتوادد بين الناس، حيث يقـرب بين النفـوس، ويبني جسـورًا بين الأرواح، ويعد عاملاً من عوامل الترابط الآلي للمجتمع(١٥)، وعاملاً من عوامل التكافل والتعاون والتضحية في سبيل الآخرين، أما البخل فمما يوجب الذم والهجاء والسُّبة لصاحبه، لأنه يؤدي إلى التباعد والتنافر بين أفراد المجتمع. يقول دعبل الخزاعي الذي مر معنا حبه للضيوف، وفرحه بقدمهم، وبشاشته في وجوهم يمدح أحد الأجواد:

لمست بكفي كـفـه أبتـغي الغنى     ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فرُحت وقد أشبهت في الجود حاتمًا     فضيعت ما أعطى وأتلفت ما عندي

(١٥) الترابط الآلي عند علماء الاجتماع هو الترابط القائم على العادات والتقاليد وروابط الدم والقيم الاجتماعية المختلفة، ويقابله الترابط العضوي القائم على تبادل المصالح والخدمات بين أنساق المجتمع المختلفة.

فالكرم قيمة اجتماعية متأصلة في ثقافة المجتمع، وفي أعرافه وتقاليده، وتعد جزءًا من حياته، ولا أظن أن هناك أمة يمكن أن تنافس العرب في هذا الجانب، أو تصل قريبًا منهم.

## قصص الكرم عند العرب:

وبالإضافة إلى الشعر وتعدد المصطلحات والمفاهيم التي تدل على الكرم وتمتدحه، هناك الكثير من القصص والمواقف الطريفة التي يتوارث حكايتها الناس جيلاً بعد جيل، وتلك القصص تحمل معها أثناء رحلتها التاريخية من جيل إلى جيل بعض عناصر ثقافة المجتمع المرغوبة، وبعض الصفات المذمومة، فتؤدي إلى تنشئة الأجيال على حب المرغوب والبعد عن المذموم، فقصص العرب عن الكرم والكرماء لا تقال للتسلية وتزجية الوقت فقط، وإنما بالإضافة إلى ذلك لها وظيفة اجتماعية تتمثل في التنشئة غير المباشرة للأجيال المتعاقبة.

وتراث العرب مليء بالقصص التي تحكي تسابقهم في الكرم وافتخارهم بذلك، وانتقاص من لا يقوم بواجب ضيافة رواده وقاصديه. وبقيت هذه القصص والحكايات تنتقل من جيل إلى جيل داعية إلى ممارسة هذه القيمة الرفيعة، وغارسة في نفوس الناشئة حبها والفخر بها، والتمسك بالعمل بها ونقلها لمن يليهم من أجيال. وسوف نورد فيما يأتي نماذج من قصص الكرم العربي.

## مروءة ووفاء:

أورد محمد جاد المولى وآخرون(١٦) القصة الآتية معتمدين على عدد من المراجع القديمة المشهورة مثل أمثال الميداني، والمستطرف، والأغاني، ومعجم البلدان، والمحاسن والأضداد، وبلوغ الأرب، وتروي القصة أن النعمان بن المنذر خرج يومًا يتصيد على فرسه المسمى

(١٦) محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (قصص العرب)، دار الجيل، بيروت ١٣٩١هـ، ج١، ص: ١٧١ وما بعدها.

"اليحموم"، فجرى خلف حمار وحشي، فابتعد عن أصحابه، وانفرد عنهم، فهطل المطر فطلب ملجأ يلجأ إليه، فدخل بناءً فوجد فيه رجلاً من طيئ يقال له حنظلة ومعه امرأته. فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم، فخرج إليه وأنزله في داره، ولم يكن للطائي غير شاة، وهو لا يعرف النعمان، فقال لامرأته: أرى رجلاً ذا هيئة، وما أخلقه أن يكون من الشرفاء، فما الحيلة؟ قالت: عندي شيء من الطحين كنت ادخرته، فاذبح الشاة، وسوف أصنع من الطحين خبز ملة.

فأخرجت المرأة الدقيق، فخبزت منه، وقام الطائي إلى شاته فاحتلبها، ثم ذبحها وطبخها وقدم له مرقتها مع الخبز، وسقاه من حليبها، وأطعمه من لحمها، وجعل يحدثه ويسامره بقية ليلته.

فلما أصبح النعمان لبس ثيابه، وركب فرسه، ثم قال: يا أخا طيئ، اطلب ثوابك، أنا الملك النعمان، قال: أفعل إن شاء الله. ثم لحق الخيل، فمضى نحو الحيرة. ومكث الطائي بعد ذلك زمانًا حتى أصابته نكبة وجهد، وساءت حاله، فقالت له امرأته: لو أتيت الملك لأحسن إليك؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة، فوافق يوم بؤس النعمان، فإذا هو واقف في خيله بسلاحه.

فلما نظر إليه النعمان عرفه، وساءه مكانه، فقال له: أفلا جئت في غير هذا اليوم! فقال الطائي: أبيت اللعن! وما كان علمي بهذا اليوم؟ فقال: والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس (ابن النعمان) لم أجد بدًا من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا، وسل ما بدا لك فإنك مقتول! قال: أبيت اللعن! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟! قال النعمان: إنه لا سبيل إليها. قال: فإن كان لا بد فأجلني حتى ألم بأهلي، فأوصي إليهم وأهيئ حالهم، ثم أنصرف إليك. قال النعمان: فأقم لي كفيلاً بموافاتك. فالتفت الطائي إلى شريك بن عمرو وهو واقف بجنب النعمان، فقال له:

يا شريك يا بن عمرو هل من الموت محاله
يا أخا كل مصاب يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فك اليوم ضيفًا قد أتى له

فأبى شريك أن يتكفل به، فوثب إليه رجل من كلب يقال له (قراد بن أجدع) فقال للنعمان: أبيت اللعن! هو علي! قال النعمان: أفعلت ؟ قال: نعم، فضمنه إياه، ثم أمر للطائي بخمسمئة ناقة، فمضى الطائي إلى أهله، وقد جعل الأجل حولاً من يومه ذاك. فلما حال عليه الحول، وبقي من الأجل يوم، قال النعمان لقراد: ما أراك إلا هالك غدًا، فقال قراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدًا لناظره قريب

فلما أصبح النعمان ركب خيله متسلحًا، وأخرج معه قرادًا، وأمر بقتله، فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه، فتركه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قرادًا ليفلت الطائي من القتل، فما كادت الشمس تغيب، وقراد قائم على النطع، والسياف إلى جانبه، حتى أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عين بكي لي قراد بن أجدعا رهينًا لقتل لا رهينًا مودعا

فبينا هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد، وقد أمر النعمان بقتل قراد، فقال وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو؟ فكف حتى انتهى إليه الرجل، فإذا هو الطائي!.

فلما نظر إليه النعمان شق عليه مجيؤه، فقال له: ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل؟ قال: الوفاء، قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: ديني. قال النعمان: وما دينك؟ قال: النصرانية. قال النعمان: فاعرضها علي، فعرضها عليه، فتنصر النعمان وأهل الحيرة أجمعون، وترك القتل منذ ذلك اليوم، وعفا عن قراد، وقال : والله ما

أدري أيهما أوفى وأكرم، أهذا الذي نجا من القتل وعاد، أم هذا الذي ضمنه؟ والله لا أكون ألأم الثلاثة، فأنشأ الطائي يقول:

ما كنت أخلف ظنه بعد الذي أسدى إلي من الفعال الخالي
ولقد دعتني للخِلاف ضلالتي فأبيت غير تمجدي وفعالي!

ونستخلص من هذه القصة التي دارت أحداثها في العصر الجاهلي، أن الطائي لم يدخر وسعًا في إكرام ضيفه، فذبح له الشاة الوحيدة التي كان يملكها، وزوجته أخرجت الطحين الذي كانت تحتفظ به لأوقات الأزمات، والمواقف الحرجة، ورأت أن حلول الضيف عليهم يستوجب إخراج ذلك الكنز المدخر، وأن الطائي أكرم ضيفه بأن قدم له مرقًا وخبزًا ولحمًا وحليبًا، ولم يكتف بهذا، بل بقي يحادثه ويلاطفه ويسامره طوال ليله.

وفي القصة إشارة إلى فراسة العرب حيث عرف من هيئة الضيف أنه رجل له شأن ومنصب. وعندما غادر الملك وطلب منه أن يأتيه في الحيرة، لم يستعجل ذلك الأعرابي الذهاب، وربما رغب في ألا يذهب، فهو لم يطعمه ويكرمه ليأخذ على ذلك أجرًا، ولكن عندما جارت عليه الأيام، وعضه الدهر بنابه تذكر الملك فقصده، وليته لم يفعل. فالنعمان كان لديه عادة سيئة، فله كل عام يومان، يوم يسميه يوم النحس، يقتل فيه أول من يقابله، ويوم يسميه يوم السعد يعطي فيه أول من يقابله في ذلك اليوم ما يطلبه. وكان وراء هذه العادة سلطة مطلقة لا ترقب في الناس إلاً ولا ذمة، ولا يردعها عن البغي والطغيان رادع. وكان من سوء حظ ذلك الطائي أن وصل إلى النعمان في يوم نحسه. وعندما أصر الملك على قتله لم يشأ أن ينسى زوجته وشريكة حياته، فعاد إليها ليؤمن أوضاعها، وأخذ معه ما أعطاه الملك من إبل. والرجل الذي بلغ به الكرم أن يقدم لضيفه كل ما يملك، وأن يستنقذ حياته من الجوع، أو هكذا ظن، لا يمكن له أن يدع رجلاً

كريمًا آخر تقدم لكفالته يموت بسبب تأخره، فحمل روحه على راحته وقدم على الملك لينقذ كفيله، ولو كان هذا الطائي لئيمًا لما عاد، ولكن الكرم وهو صفة جامعة لكل صفة حميدة متأصل في نفسه، يجري منه مجرى الدم. وتفيدنا القصة أن الدين يمنع من الآثام، ويدفع صاحبه إلى فعل الخير وإلى الوفاء، فمن فضل النصرانية - رغم ما أصابها من تحريف - التي كانت موجودة بين العرب قبل الإسلام أن أنقذت قرادًا، وغيّرت مجرى حياة النعمان، فأبطل عادة القتل وإزهاق الأرواح دون سبب مشروع. فالقصة تحمل في ثناياها قيمًا اجتماعية رفيعة تتمثل في الكرم في أبهى صوره، وتتمثل في الوفاء بالوعد، وفي التضحية من أجل الآخرين ومساعدتهم، وفي تنافس الناس في الخير، فالملك عدل عن عادته لما رأى من تنافس الطائي وقراد بن أجدع على التضحية والوفاء.

## تنافس في الجود والكرم:

جاء في (قصص العرب)[١٧] منقولاً عن (خزانة الأدب) أن عبيدالله بن العباس وكان مشهورًا بالجود والكرم، ومن رموز المجتمع في هذا الميدان، فهو أول من فطّر جيرانه في رمضان، وأول من وضع موائده في الطرق، خرج من المدينة يريد الشام، فأصابته سماء، فرأى نارًا عن يمينه، فقال لغلامه: مل بنا إليها.

فلما أتياها إذا شيخ ذو هيئة رثة فقال له: أنخ، انزل، حُييت. ودخل إلى منزله، فقال لامرأته: هيئي شاتك أقضي بها ذمام هذا الرجل، فقد توسمت فيه الخير، فإن يكن من مضر فهو من بني عبدالمطلب، وإن يكن من اليمن فهو من بني آكل المرار. فقالت له: قد عرفت حال صبيتي، وإن معيشتهم منها، وأخاف الموت عليهم إن فقدوها، فقال: موتهم أحب إلي من اللؤم، ثم قبض على الشاة، وأخذ الشفرة، وأنشد:

(١٧) المصدر السابق ١٣٩١هـ، ج١، ص: ٢٢٠.

قـــريبـــتي لا توقظي بنيّــه إن يُوقـضوا ينسـحبوا عليّه
وينـزعـوا الشـفـرة من يديّه أُبـغـض هـذا أن يُـرى لـديّه

ثم ذبحها وكشط جلدها، وقطعها أرباعًا وقذفها في القدر، حتى إذا استوت ثرد في جفنة، فعشاهم ثم غداهم.

ثم أراد عبيدالله الرحيل، فقال لغلامه: ارم للشيخ ما معك من نفقة، فقال: ذبح لك شاة فكافأته بثمن عشر أمثالها، وهو لا يعرفك! فقال: ويحك! إن هذا لم يكن يملك من الدنيا غير هذه الشاة، فجاد لنا بها، وإن كان لا يعرفنا فأنا أعرف نفسي، ارم بها إليه، فكانت خمسمئة دينار.

ثم ارتحل عبيدالله فوصل الشام وقضى حاجته، ثم أقبل راجعًا إلى المدينة، حتى إذا قرب من ذلك الشيخ قال لغلامه: مل بنا ننظر في أي حالة هو، فانتهيا إليه، فإذا برجل سري عنده دخان عال، ورماد كثير، وإبل وغنم، ففرح عبيدالله بذلك، فقال: له الشيخ: انزل بالرحب والسعة، فقال له عبيدالله: أتعرفني؟ فقال: لا والله، فمن أنت؟ فقال: أنا نزيلك ليلة كذا وكذا، فأقبل عليه فقبل رأسه ويديه، وقال: قد قلت أبياتًا أتسمعها مني، فقال: هات، فأنشد:

توسـمـتـه لما رأيت مـهـابةً عليه وقلت: المرء من آل هاشم
وإلا من آل المرار فـإنهم ملوك عظام من كرام أعاظم
فقمت إلى عنز بقية أعنز لأذبحها فعل امرئ غير نادم
فعوضني عنها غناي ولم تكن تساوي عنزي غير خمسِ دراهم
فقلت لأهلي في الخلاء وصبيتي أحقًا أرى أم تلك أحلام نائم

فضحك عبيدالله، وقال: أعطيتنا أكثر مما أخذت منا، يا غلام أعطه مثلها. وبلغت فعلته معاوية فقال: لله در عبيدالله، من أي بيضة خرج، وفي أي عش درج!!

وهذه القصة كسابقتها فيها صاحب الدار يقدم لضيفه أعز وأثمن ما يملك، وفيها الضيف يرد المعروف ولا ينساه، ومنها نستدل على أن الكرم رابطة اجتماعية توثق العلاقات والصلات بين الناس، فعبيدالله لم ينس في طريق عودته من الشام أن يمر على ذلك الشيخ الذي أكرمه ليتفقد أحواله ويرى كيف أصبحت أوضاعه، فوجد أن المال الذي أعطاه إنما أعطي لرجل كريم حكيم، ومن دلائل أن الكرم متأصل فيه ذلك الدخان المرتفع، وذلك الرماد الكثير حول داره، وكثرة الرماد دليل على الكرم، فالعرب تكني عن الكريم بأنه (كثير الرماد)، أما حكمته فتتجلى في أنه لم يبذر المال الذي أعطاه عبيدالله، وإنما استثمره خير استثمار، حيث اشترى به إبلاً وغنمًا، تتوالد وتتكاثر، يعيش منها هو وأهله ويكرم ضيوفه. ويبدو أن المدة بين ذهاب عبيدالله إلى الشام وعودته منها كانت طويلة، فالشيخ لم يعرفه لطول الفترة التي فصلت بينهما، والرماد تكاثر، وكذلك الإبل والغنم.

## إطعام الحيوان نوع من الكرم:

الدواب مخلوقات تجوع وتظمأ، وتحب وتكره وتتألم، وكان العرب يعتمدون عليها في حياتهم، فمن لحومها يأكلون، ومن حليبها يشربون، ومن أصوافها وأوبارها ينسجون ملابسهم ومنازلهم، وتحملهم إلى بلدان لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس. ولذلك كانوا يكرمونها، ويدافعون عنها، وربما آثرها بعضهم على نفسه. ومن إكرام الضيف إكرام دابته، وتقديم العلف لها، والعناية بها.

وإطعام الحيوان والعناية به والشفقة عليه قيمة رفيعة أكدها الإسلام، ودعا إليها وجعل أجرها كبيرًا من الله سبحانه وتعالى. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ

خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا، قال: في كل كبد رطبة أجر)[١٨]. وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار، قال: فقال والله أعلم: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض)[١٩].

فالحديث الأول يبين كيف أن إنسانًا دخل الجنة بسبب استنقاذه روح كلب كاد يهلك من العطش، وبين أن في كل كبد رطبة أجرًا، وهو يشمل جميع الحيوانات تقريبًا، فالكبد الرطبة كناية عن الحياة، وفي الحديث الثاني بيان لجزاء من أجرم في حق الحيوان، فحبسه أو عذبه حتى الموت. فالمرأة دخلت النار بسبب حبسها لقطة حتى ماتت. وهذا يدل على أن تقديم الطعام نوع من الكرم الذي دعا له الإسلام وحث عليه.

جاء في (قصص العرب)[٢٠]، أن عبدالله بن جعفر خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها، فأتي بثلاثة أقراص، فدخل كلب فدنا منه، فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما، وعبدالله ينظر إليه، قال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت الكلب؟ قال: لأن أرضنا ليست بأرض كلاب، وإخاله قد جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت رده. قال: فما كنت صانعًا اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا. فقال عبدالله بن جعفر: والله إن هذا لأسخى مني، فاشترى النخل والغلام، وأعتقه ووهب ذلك له.

(١٨) صحيح البخاري، الحديث رقم: ٢١٩٠.
(١٩) صحيح مسلم، الحديث رقم: ٢١٩٢.
(٢٠) قصص العرب ١٣٩١هـ، ج١، ص: ٢٢٩.

إن قمة الكرم أن يقدم الإنسان كل ما لديه وهو لا يرجو جزاء ولا شكورا إلا من رب السماوات والأرض، وهذا ما فعله ذلك الغلام، الذي آثر أن يصوم يومه وأن يقدم طعامه كله لكلب جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فنظر إليه على أنه ضيف وابن سبيل قد تقطعت به السبل، فليس هناك من يؤويه ولا من يقدم له الطعام. إن بين جنبي ذلك الغلام روحًا كريمة، وفيه أصالة المؤمنين الصابرين. رأى عبدالله بن جعفر منه ذلك فأعجب به، وأراد أن يكافئه من حيث لم يكن ينتظر مكافأة من مخلوق، ولكنها إرادة الله الذي ساق عبدالله بن جعفر في هذه العاجلة ليشتريه ويعتقه، ويشتري المزرعة ويهبها له، وما ينتظره في الآخرة قد يكون مشابهًا لما حصل عليه ذلك الذي ملأ خفه وسقى الكلب العطشان، وذلك هو قمة الفوز والربح.

## حاتم الطائي - النموذج المثالي للكرم العربي:

طور عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) نموذجه التفسيري المعروف بـ (النموذج المثالي) أو (النمط المثالي) وهو باختصار فكرة يشيدها الباحث في ذهنه أو يستقيها من الحياة ليقيس الواقع عليها، وكلما كان الواقع قريبًا من تلك الفكرة كان أقرب إلى الكمال، وكلما كان بعيدًا عن الفكرة كان أبعد عن الكمال(٢١). ولتوضيح الفكرة من واقع الحياة، هناك جوائز للطالب المثالي في الحياة الدراسية، وكل مدرسة تضع مواصفات لذلك الطالب منها التفوق الدراسي، والمواظبة على الحضور، والنظافة، والأخلاق، وكثرة القراءة الحرة، والمشاركة في أنشطة المدرسة، وغير ذلك من الصفات، وعند استعراض الطلاب يتم اختيار أقربهم للتحلي بهذه الصفات التي قد

(٢١) انظر: نيقولا تيماشيف (نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها) ترجمة: محمود عودة، محمد الجوهري، محمد علي محمد، والسيد محمد الحسيني، مراجعة: محمد عاطف غيث، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٢م ص: ٢٦٦ وما بعدها.

تختلف من مدرسة إلى أخرى حسب اختلاف الظروف والأهداف التي تود المدرسة الوصول إليها.

وفي التاريخ العربي يُعد حاتم الطائي نمطًا مثاليًا للكرم، فيقال (هذا كرم حاتمي) ويوصف الشخص بأنه (أكرم من حاتم) إذا كان مضيافًا. ولا شك أن (الكرم الحاتمي) أصبح جزءًا من الثقافة العربية، تنتقل قصصه وحكاياته من جيل إلى جيل فتغرس في كل جيل ناشئ حب الكرم، ومحاولة تقليد حاتم في صفاته وفعاله لعل الشخص ينال من التقدير والاحترام والذكر بعضًا مما نال حاتم الذي خلده كرمه بين العرب. ولكن السؤال الذي سوف نحاول أن نجيب عنه هنا هو: ما الصفات التي جعلت حاتمًا يصبح نموذجًا مثاليًا في الكرم، وتُحفظ عبر الأجيال حكايات كرمه وسخائه؟

عاش حاتم في الجاهلية، وكان شاعرًا، وله مكانة بين قومه، وقد تحلى بالقيم والأخلاق الرفيعة، وقد ذكرتها ابنته بين يدي رسول الله ﷺ، فقد كان عدي بن حاتم الطائي من أشد الناس عداء لرسول الله، فوجه الرسول الكريم إلى طيئ فريقًا من جنده يقدمهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهرب عدي إلى الشام واستاق عليٌ خيلهم ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله ﷺ.

فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سفَّانة بنت حاتم الطائي، فقالت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه، يفك العاني (الأسير)، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل (العائل واليتيم) ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبا، أنا بنت حاتم الطائي.

فقال النبي ﷺ: يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقًا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. ثم قال: (ارحموا عزيزًا ذل، وغنيًا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال). وامتن عليها بقومها فأطلقهم تكريمًا لها. ثم أسلمت ودعت أخاها عديًا عندما رجعت إليه إلى الإسلام فأسلم(٢٢).

لقد كان حاتم كما قال المصطفى ﷺ يحب مكارم الأخلاق. وقد عدَّدت منها ابنته إحدى عشرة مكرمة وقيمة اجتماعية، كل واحدة منها تستحق أن يُكرم حاملها من أجلها، ولم يصبح حاتمًا سيد قومه إلا لتمتعه بهذه الصفات الرفيعة التي تعد من صفات المؤمنين. وجاءت قيمة (إطعام الطعام) في المرتبة الثامنة بين القيم التي عددتها سفَّانة رضي الله عنها عن والدها. ولكنها أصبحت بين العرب أبرز صفاته وأشهرها، وتروى عنه مواقف غريبة وعجيبة في هذا المضمار. وربما كان الترتيب فيما قالته سفانة ليس مقصودًا، والمرجح أنها كانت تعدد مكارمه حسب ما يرد في ذهنها.

ومن أغرب ما يروى عنه ما تحدثت به امرأته ماوية(٢٣) حيث قالت: أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض، واغبر أفق السماء، وضنت المراضع على أولادها، فما تبض بقطرة، وحلقت السنة المال، وأيقنا بالهلاك، فوالله إنا لفي ليلة باردة، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تضاغى صبيتنا جوعًا: عبدالله، وعَدي، وسفَّانة. فقام حاتم إلى الصبيين، وقمت أنا إلى الصبية. وأقبل يعللني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومت.

فلما تهورت النجوم، إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد. فقال حاتم: من هذا؟ فقالت: جارتك فلانة، أتيتك من عند صبية يتعاوون

(٢٢) انظر: (قصص العرب) مصدر سابق، ج١، ص١٨٦.

(٢٣) المصدر السابق، ج١، ص ١٦٧-١٦٨

عـواء الذئاب، فـمـا وجـدت مـعـوَّلاً إلا عليك يا أبا عَـدي.!! فـقـال: أعجليهم، فقد أشبعك الله وإياهم.

فأقبلت المرأة تحمل اثنين، ويمشي بجانبها أربعة، كأنها نعامة حولها رئالها. فقام حاتم إلى فرسه فوجأ لبته بمدية فخرَّ، ثم كشطه عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة، فقال لها: شأنك، فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل. ثم جعل يمشي في الحي بيتًا بيتًا، فيقول: هبوا أيها القوم، عليكم بالنار، فاجتمعوا فالتفع ثوبه، وجلس في ناحية ينظر إلينا. فوالله إن ذاق منه مزعة، وإنه أحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر، فأنشأ حاتم يقول:

مـهــلاً نَوَار أقلي اللوم والعـذلا ... ولا تقولي لشيء فات ما فعلا ؟!!
ولا تقـولي لمال كنت مـهلكه ... مهلاً وإن كنت أعطي الإنس والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدةً ... إن الجواد يرى في ماله سبلا

وفي هذه القصة نرى قمة الكرم والجود عند حاتم، فقد نحر فرسه وهي كل ما يملك، وأعز ما يملك فهو سيد قومه وفارسهم، وشاعرهم، والسيادة والفروسية لا تكملان بدون فرس. فما قيمة فارس بدون فرس؟!! وما قيمة سيد لا ظهر له يحمله بين مضارب قومه؟!! وفي منتدياتهم. والفرس قريبة دائمًا من نفس صاحبها، بينه وبينها علاقة روحية نشأت مع الأيام، ومع الأسفار، وإذا حارب على ظهرها فإن العلاقة تكون أعمق وأقوى. وحاتم شاعر وفارس ولهذا لا بد أن تكون علاقته بفرسه أشد وأعمق من علاقة غيره. ومع هذا كله لم يتردد في ذبح فرسه عندما جاءته أم الأطفال مستجيرة به، وقد كان أبناؤه يتضورون جوعًا، وحاول هو وزوجته أن يناغياهم حتى يناموا، وتمضي تلك الليلة لعل فيما يليها من أيام فرج ومخرج لكربهم.

لم يحاول حاتم أن يعطي لزوجته وأطفاله وللمرأة وأطفالها ما يحتاجونه من لحم الفرس، ويدخر الباقي للأيام القادمة، ولكنه علم - وهو سيد قومه وفارسهم وشاعرهم - أن بيوتًا أخرى تشكو من الجوع، ولم يشأ أن يأكل أهله وضيفته وأبناؤه والبقية من سكان الحي جياع، فمر عليهم بيتًا بيتًا يدعوهم للطعام. ولا شك أن وفاء حاتم لفرسه وحبه وتعلقه بها جعله يستنكف عن أكل لحمها، حيث التفع ثوبه، وجلس ناحية ينظر إلى القوم وهم يأكلون، تتنازعه عاطفتان: عاطفة الغبطة والسرور بأنه قدم للناس الطعام، وقام بالعمل الذي يجد نفسه فيه، وهو الكرم والجود والبذل، وعاطفة الأسى والحزن على فرسه التي قاسمته كثيرًا من المواقف، وحملته إلى أماكن لم يكن ليبلغها بغيرها إلا بشق الأنفس. لقد سارت قصة ضيوف حاتم وذبح فرسه لهم بين العرب قديمًا وحديثًا، وكانت ولا تزال محل الإعجاب، ولقد هلك حاتم وتعاقبت الأجيال، وبقي عمله هذا خالدًا وحيًا تتناقله الأجيال، وتنظر إليه على أنه قمة الجود والكرم والبذل والعطاء، فيه استنقاذ لأرواح، وتضحية بأعز وبكل ما يملك.

**وفاء حاتم لفرسه وحبه وتعلقه بها جعله يستنكف عن أكل لحمها**

ولم يكن حاتم يكرم الضيف فقط، وإنما كان ذا مروءة ووفاء، يفك العاني، ويساعد المحتاج، كما ذكرت ذلك ابنته عنه أمام رسول الله ﷺ، ومما يدل على مروءته وسخائه أن (عبد قيس بن خفاف البرجمي) أتاه في دماء حملها عن قومه وعجز عنها، وقال له: إنه وقعت بيني وبين قومي دماء، وإني حملتها في مالي وأهلي، فقدمت مالي وأخرت أهلي، وكنت أملي، فإن تحملتها فرب حق قد قضيته، وهمّ قد كفيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ولم أيأس من غدك. فقال له حاتم: إني كنت لأحب أن يأتيني مثلك من قومك، هذا مرباعي (وهو ما يأخذه الرئيس من الغنيمة خاصة دون أصحابها) من الغارة على بني تميم فخذه وافرًا، فإن وَفَى بالحمالة، وإلا أكملتها

لك، وهو مئتا بعير سوى نيبها وفصالها، مع أني لا أحب أن ترهق قومك بأموالهم[٢٤].

هنا يظهر كرم حاتم وسخاؤه، فهو ليس فقط يذبح للضيوف، ويقريهم، ويطعمهم، وإنما - بالإضافة إلى ذلك - يفك الأزمات، ويساعد المحتاجين، فمهما كان عدد ضيوفه فلن يذبح لهم مئتي بعير، فهذا العدد يكفي لإطعام جيش عرمرم. ولو لم يكن حاتم معروفًا بكرمه وجوده لما أتاه ذلك البرجمي طالبًا عونه ومساعدته. فقد كان حاتم مشهورًا بذلك، يعرف هذا عنه الكبير والصغير، والبعيد والقريب، حتى أصبح النموذج المثالي للكرم عند العرب قديمًا حديثًا.

**الكرم في الحياة المعاصرة:**

توارث العرب الكرم جيلاً بعد جيل، ورغم تغير ظروف الحياة في الجزيرة العربية، وتوفر البدائل المختلفة لإطعام الضيف، فإن الذبيحة ظلت هي رمز الكرم عند الغالبية العظمى من الناس، ففي الإمكان اليوم تقديم وجبة صحية فيها أكلات بحرية، ولحوم طيور، ولحوم حمراء مختلفة، بالإضافة إلى الفواكه، والخضروات، والمقبلات والحلويات، ولكن الكثير يرون أن الوجبة ناقصة ما لم تحو ذبيحة. وكثير من الناس لا يتردد في الإنفاق في هذا الجانب، ولكنه قد يتردد كثيرًا لو طلب منه التبرع لمشروع خيري، أو لمساعدة محتاج، أو يتيم. وما ذلك إلا لأن ثقافة المجتمع ركزت عبر تاريخها المتوارث على الجانب الأول، ولم تعر الجانب الثاني كثير اهتمام لأن تنظيمه بصفة جماعية حديث نسبيًا، ولم توجد قنوات لمدح وإظهار مكانة الداعم للمشروعات الخيرية سواء شعرًا أو نثرًا كما هو الحال مع ظاهرة الكرم التي لا زال الناس يمتدحون صاحبها في أشعارهم، وأحاديث مجالسهم.

---

(٢٤) المصدر السابق، ج١، ص١٦٥-١٦٦ .

وفي هذا الشأن يقول أحد المثقفين المعاصرين: (مع وجود ألف وسيلة ووسيلة لعمل الخير، لم يعد الطبخ والنفخ الأسلوب الأمثل لشكر الخالق والإحسان إلى المحتاج، إن الشخص الذي يتبرع لجمعية خيرية بألف ريال أكرم في نظري بكثير من الشخص الذي يدفع عشرة آلاف ريال فاتورة فندق لصديق ثري لا يحتاج لهذا المبلغ)[٢٥]. وربما ضيّق بعض الناس على أهل بيته، وتحمل الديون في سبيل شراء الذبائح، وما يتبعها من تكاليف، والمبالغة في إكرام الضيف. يروى عن أحدهم أن خمسة أشخاص من قومه جاؤوا إليه في سيارة واحدة من إحدى المدن، فذبح لكل واحد منهم ذبيحة، وعندما أرسل في طلب حضور جيرانه وجد أن الغالبية العظمى منهم لديهم ارتباطات في أماكن مختلفة، ولم يحضر منهم إلا ثلاثة فقط، أحدهم هو الذي روى القصة للباحث، وعند تقديم الطعام دنا على كل ذبيحة شخصان فقط، ويذكر راوي القصة أن أوضاع صاحب الدار المادية كانت متواضعة، وربما كلفته تلك الوجبة كل راتبه الشهري. إن عملاً مثل هذا ينافي ويخالف الشرع الذي نهى عن الإسراف والتبذير، وينافي العقل والرشد الذي يفرض على كل إنسان أن يكون حكيمًا وواقعيًا، وأن يحاول أن يرشّد استهلاكه، وأن تكون تصرفاته موافقة للعقل والحكمة، ففي الحالة التي أوردناها سابقًا ذبيحة واحدة كانت كافية، ورغم أن صفة الإلزام والقهر مرتبطة بالظواهر الاجتماعية، مثل ظاهرة الكرم، ويخشى الكثير من الناس الخروج عليها، فإن ذلك المضيف في هذه الحالة لم يُطالب بتعطيل عادة الكرم والهروب عنها، وإنما يمارسها في الحدود المقبولة اجتماعيًا.

أما طريقة تقديم الذبيحة فتختلف من منطقة إلى أخرى، فهناك من يقدمها مجزّأة، وهناك من يقدمها مفصّلة للضيف ويطلب منه أن



(٢٥) غازي عبدالرحمن القصيبي، (في رأيي المتواضع)، الطبعة الثانية، مكتبة تهامة، جدة، ١٤٠٤هـ.

يتولى توزيعها، بحيث يترك جزءًا منها لأهل البيت من النساء والأطفال، والبعض كان يضع اللحم بعد تقطيعه في صحن ويقدمه للضيوف، أما بقية اللحم فيوزعه على الحاضرين من السكان المحليين، بحيث يستطيع الواحد منهم أن يأكل نصيبه، أو يذهب به إلى أهله، أو يأكل بعضه ويستبقي البعض الآخر، وكان نصيب كل فرد لا يتجاوز في الغالب مئتي جرام، وفي بعض المناطق كانوا يقدمون الطعام للضيوف وينصرفون عنهم حتى ينتهوا من طعامهم، وفي بعض المناطق كانت تطفأ الأنوار، والهدف في الحالتين هو إعطاء الضيف الحرية ليأكل الكمية والأجزاء التي يريد. وكان تقديم رأس الذبيحة ضروريًا في بعض المناطق، بينما كانت مناطق أخرى تعده عملاً غير مرغوب، ويستوي الأمران عند البعض، وكانت بعض المناطق تقبل ذبح المتيسر من ذكر أو أنثى الضأن أو الماعز، وأهم شيء فيها أن تكون كبيرة وسمينة.

وفي المملكة العربية السعودية، بعد توحيدها، وخاصة بعد فترة الانتعاش الاقتصادي، وكثرة الهجرة من الأرياف والبوادي إلى المدن، وكثرة الوسائل والعوامل المقربة بين فئات المجتمع ومناطق الوطن، انتشرت في العقدين الأخيرين طرق شبه موحدة لتقديم الطعام والذبائح للضيوف، ولعل أشهرها تقديم الذبيحة كاملة (مفطّحة) ما عدا الرقبة واليدين وبعض الأضلاع، وأصبح ذبح ذكر الضأن هو الشائع، وأصبح البعض يستنكف من ذبح الماعز أو أنثى الضأن، وأصبح تقديم رأس الذبيحة أمرًا معتادًا، بل واجبًا في معظم المناطق، وتعد الذبيحة ناقصة إذا لم يقدم الرأس معها، أما طرق الطبخ فتعددت وتنوعت فهناك المندي، وهناك الحنيذ، وهناك الكوزي، وهناك طرق الطبخ المعروفة وهي سلق الذبيحة في الماء، ولها طرق متعددة منها (السليق) وهو إضافة الحليب إلى الأرز، ومنها (البخاري) وهو طبخ الأرز بالبصل والطماطم وبعض البهارات.

وبعض هذه الطرق لتقديم الطعام في المجتمع السعودي جاءت من اتباع الناس لما كان يقوم به الملك عبدالعزيز رحمه الله. يقول أحد كبار السن: إن طريقة (المفطح) لم تكن معروفة إلا على مائدة الملك، فهي طريقة ملكية لتقديم الطعام، وخاصة عندما يكون لدى الملك ضيوف من خارج البلاد. ورويدًا رويدًا انتقلت هذه الطريقة إلى عامة الناس، حيث نقلها المقربون من الملك إلى موائدهم، ثم قام الناس بتقليد هذه الطريقة التي تدل على المبالغة في إكرام الضيف، وإظهار احترامه وتقديره، وقد ساعد على نشر هذه الطريقة تحسن الظروف الاقتصادية، وارتفاع مستوى المعيشة لدى معظم الناس.

وطرق إكرام الضيف المعاصرة أدت إلى كثير من السلبيات، لعل أهمها وأبرزها يتمثل في الخروج من دائرة الكرم إلى دائرة التبذير والإسراف، ففي حالات كثيرة لا يُستهلك إلا القليل مما يقدم على المائدة، وأصبح الجيران والأقارب يستنكفون من استقبال الفائض من الطعام الذي يقدمه لهم جيرانهم، بل ربما يغضب بعضهم لو قدم له ذلك الفائض، بعكس ما كان عليه الحال قبل عقدين ونصف من الزمن حيث كانوا يرحّبون بذلك ويشكرون من يقوم به. وهذه الظاهرة من الأمور التي تخالف شكر النعم، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢٦]. لقد مر غالبية السكان في الجزيرة العربية بظروف اقتصادية قاسية، وكان معظمهم لا يأكل اللحم إلا نادرًا، وبعضهم كان لا يعرفه إلا في أيام الأضاحي، وكان الناس يستفيدون من كل جزء من الذبيحة، فالجلد يُحول إلى قربة، أو إلى شكوة لخض اللبن، والصوف يُجمع وينسج، والشحوم إذا بقي منها شيء تُذاب ويستفاد منها. وكانت طريق الناس في الماضي على بعضهم، فالمسافر يعد (ابن سبيل) يسير على قدميه، أو على دابته، ولم يكن هناك مطاعم، ولا فنادق، وكانت

(٢٦) الآية (٧) من سورة إبراهيم.

الرحلات - وخاصة للحج - تستغرق وقتًا طويلاً، ولهذا كان المسافر مضطرًا أن يمر على سكان القرى والبوادي للتزود بالشراب والطعام والمأوى.

لقد تغير نمط الحياة المعاصرة، و إيقاعها أصبح سريعًا، وكثرت ارتباطات الناس بأعمال ومصالح مختلفة، وتقديم الطعام لهم بالطريقة التقليدية يضيع وقتهم، وربما فوت عليهم الكثير من الفرص والمصالح. إن الغالبية العظمى من الناس لم يعودوا في حاجة إلى أن يقدم لهم الطعام، لتغير أسلوب الحياة، ووجود البدائل الكثيرة من مطاعم، وفنادق وشقق مفروشة، وتحسن الأحوال المعيشية للغالبية العظمى من الناس، وتوفر وسائل النقل السريعة التي حلت محل السير على الأقدام والسفر على الراحلة، والتي كانت تقتضي أن يمر المسافر على من يسد جوعه، ويؤمن طريقه، ويؤنس وحشته. وكثرت الأمراض المرتبطة باللحوم والشحوم مثل السكري، والنقرس، وارتفاع ضغط الدم، والسمنة.

**الغالبية من الناس لم يعودوا في حاجة إلى أن يقدم لهم الطعام لتغير أسلوب الحياة، ووجود البدائل**

وتلك التغيرات أثرت على الكرم والضيافة في الحياة المعاصرة حيث قلّت حاجة الناس لالتماس الضيافة عند بعضهم، وأصبح كثير من الناس يقول: إن الفضل للضيف إذا قبل الدعوة، لأنه في ذلك يكون سببًا في جمع الناس، وقلّ قدوم الضيف وطرقه للأبواب، وربما لا يأتي كثير من الضيوف إلا بعد القسم عليهم، وتكرار الدعوة. ولكن رغم ذلك كله فإنه لا زال للكرم وظيفة اجتماعية نبيلة تتمثل في جمع الناس، وتقوية الأواصر بينهم، في زمن قلّت فيه الروابط واللقاءات الاجتماعية، وأصبحت الحياة تميل إلى الفردية، والتمحور حول الذات، وانشغال كل فرد بأموره الخاصة. إن كثيرًا من الناس الذين تجمعهم بعض العلاقات أو القرابة أصبحوا لا يلتقون إلا في

الأعراس، أو العزاء، أو في الولائم والعزائم التي تعد للضيوف، ولا زال الكثير من  الناس يعطي الكرم قيمة اجتماعية كبيرة، ونتمنى أن يأتي اليوم الذي يتنافس فيه الناس على التبرع للمشروعات الخيرية مثلما يتنافسون في الكرم والضيافة.

وخلاصة القول أن الكرم قيمة اجتماعية لها مكانة عالية عند العرب قديمًا وحديثًا، وقد كان الشعر من أهم أدوات الضبط الاجتماعي التي حافظت على هذه القيمة، بالمدح لمن يطبقها، والذم لمن يخالفها، وللكرم أهداف ووظائف اجتماعية كثيرة، منها التكافل الاجتماعي، ومساعدة المحتاج، وتقوية الروابط والأواصر الاجتماعية، والجمع بين الناس، ودفع مكروه أو الحصول على مرغوب، وملء أوقات الفراغ، ولعل أهم وظائفها قديمًا كانت تتمثل في استنقاذ الأرواح، أما أهم وظائفها المعاصرة فهي الجمع بين الناس، ولقد كان الطعام في الأولى هدفًا في ذاته، أما في الثانية فأصبح وسيلة للتجمع واللقاءات، ودعم عمليات الترابط بين فئات المجتمع.